بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

واقع المرأة المسلمة في الأسرة المسلمة وسبيل إصلاحها

(بحث يعالج مشكلة الصلاح الشخصي لرب الأسرة ويبين الطريقة الشرعية العملية لإصلاح المرأة في البيت)

كتبه:

د. محمد أبو الفتح البيانوني

في الرياض: الثالث من ربيع الأول لعام 1391 هـ

الموافق: 29 – 4 – 1971 م

مخطط البحث

1 . مقدمة موضحة.

2 . واقع المرأة المسلمة في البيت المسلم.

3 . أهمية إصلاح المرأة وأثره في إصلاح المجتمع.

4 . سبيل النهوض بواقع المرأة، أو طريقة التغيير والإصلاح، وموقف المسلمين فيها

5 . إشكالات في طريق إصلاح المرأة، والأجوبة عنها.

1 . المقدمة:

من أبرز ما كان يلفت نظري في كل بلد أعيش فيه مع إخواني، رغبة كثير من هؤلاء الإخوان بإقامة دروس النسائية، وحرصهم على إيجادها...

إلا أنني كنت أقف أمام هذه الرغبة وقفة الحائر المتردد، أصحيح أن هذه الدروس ضرورة لا بد منها؟ وهل بإمكان هذه الدروس أن تحل المشكلة التي نعانيها في البيوت المسلمة؟ وإن كان بإمكانها ذلك فإلى أي حدٍ يمكنها ذلك التغيير!؟.

وكنت أتردد في الإجابة على هذه الأسئلة وأمثالها، حتى أكدت لي المشاهدات والأخبار ضعف أثرها في الإصلاح، وأنها ليست الطريق الأولى في سبيل الإصلاح...

لأن المرأة إذا ما تأثرت بدرس من هذه الدروس، وتنبهت في جلسة من هذه الجلسات إلى الخطر المحدق بها، فسرعان ما تعود إلى بيتها وبيئتها فتنسى ما كانت استحسنته وتأثرت به، وتفقد حماستها للسير في الطريق الذي دُلت عليه... وما أكثر شواغل المرأة في البيت وعوائقها في هذا السبيل!!

إن علماء التربية يصرون على أنه لا صلاح للطفل في المدرسة إلا بالتعاون الوثيق بين البيت والمدرسة، مع استعداد الطفل بطفولته لكل توجيه، واستغراق المدرسة لأكثر ساعات يومه...

فكيف بالمرأة التي شبت على نهج معين، ورسخت في نفسها مفاهيم معينة!! نريد منها أن تُصلَحَ بدرس أو درسين في كل أسبوع، ممن لا يملك سلطة عليها سوى التذكير والوعظ، ثم نعيدها إلى سيرتها حيث لا تجد زوجاً مهتماً بهذا الإصلاح، ولا تجد البيئة التي تحيط بها وتحفظها وتدفعها إلى الأمام...

إن كثيراً من إخواننا الذين يبغون الصلاح لأزواجهم في زعمهم لا يكادون يجدون الوقت الكافي الذي يفرغهم لأمور دينهم، والإشراف على نسائهم وأولادهم ...

فهذا مشغولاً بعلمه وتعليمه، والآخر مشغول بوظيفته وعمله، وآخر مشغول بتجارته ورحلاته... وكثير من أولئك الذين أنعم الله عليهم بشيء من التفرغ في الوقت، يفقدون القدرة والقوامة في بيوتهم، فلا تلقي المرأة لكلمتهم بالاً، ولا تحسب لرغبتهم حساباً،

فأي درس يمكن أن يفيد هؤلاء؟ وأي موعظة يمكن أن تغير من حياتهن!! اللهم إلا في عالم غير عالم الأسباب والمسببات، (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[1].

ولا يصح أن يغيب عن الأذهان أبداً، أن صلاح المرأة بصلاح الرجل، فلا أمل في إصلاح امرأة أعرض زوجها عن الصلاح، أو جهل واجبه في تحقيقه، فإذا ما غفل الرجل عن واجبه مدة من الدهر، فما عليه إلا أن يتحمل في سبيل الرجوع إلى الحق، وفي سبيل النجاة كل صعب، وأن يبذل جهده كله في هذا السبيل، ويكفيه فضلاً أنه تنبه لواجبه في الوقت الذي غفل عنه الكثيرون، ورجع عن طريق الشر قبل أن لا ينفع الندم ...

---

[1] الآية /11/ من سورة الرعد .

2 . واقع المرأة المسلمة في البيت المسلم:

لا أجدني في حاجة إلى الإسهاب في بيان واقع المرأة المسلمة اليوم في البيت المسلم، لأن هذا الواقع المرير ملموس لدى جميع الناس، فإن لم يعرفه الإنسان في بيته عرفه في بيوت أقاربه وأصحابه، وإن لم يعرفه في تلك البيوت عرفه فيمن حوله من الناس عامة...

فقلما تجد بيتاً مسلماً يحافظ نساؤه على الصلوات من قبل أنفسهن، سواء في ذلك الأمهات أو البنات...

وقلما تجد بيتاً مسلماً يخلو من تكشف العورات سواء ذلك في الأمهات أو البنات...

وقلما تجد بيتاً مسلماً لا يتجول نساؤه في الشوارع والأسواق، قصد النزهة أو شراء الحاجات، مع علم الرجال واطلاعهم على ذلك...

وقلما تجد بيتاً مسلماً لا يسافر نساؤه من مكان إلى مكان من غير محرم شرعي، مع إقرار رجالهن على ذلك، أو طلب ذلك منهن...

وقلما تجد بيتاً مسلماً يسلم نساؤه من كلام السوء والفحش، ولا تفشو بينهن الغيبة والنميمة...

وقلما تجد بيتاً مسلماً لا تجتمع في نسائه أكثر هذه المنكرات، إن لم يحتو عليها كلها...

فإلى أي حد نكون صادقين إذا أطلقنا على أمثال هذه البيوت اسم البيت المسلم، وأي شعار من شعارات الإسلام يسلم لهؤلاء، اللهم إلا أن يعرف صاحبه بالإسلام أو بالدعوة إليه...!!!

3 . أهمية إصلاح المرأة، وأثره في إصلاح المجتمع:

كثيراً ما يتحدث المصلحون عن المرأة في الإسلام، ويكتبون عن مكانتها في المجتمع المسلم، وعن كرامتها التي أعادها إليها الإسلام وألح في المحافظة عليها...

إلا أن قليلاً منهم من يلتفت إلى واقعها العملي السيئ في البيوت المسلمة فيحاول النهوض بها، ويوضح السبل السليمة لإصلاحها...

ولا عجب من الاهتمام بها ذلك الاهتمام ما دامت المرأة نصف المجتمع، ومربية النصف الآخر منه.

وإذا كان لا بد للإصلاح في مجال الرجال من طليعة مؤمنة تتفهم الإسلام تفهماً صحيحاً، وتطبقه في حياتها تطبيقاً كاملاً، فتكون النموذج العملي الداعي للإصلاح قولاً وعملاً، كذلك فإنه لا بد للإصلاح في مجال النساء من طليعة مؤمنة صالحة تقوم بمثل الدور الذي يقوم به الرجال...

ولكن: أين يا ترى يمكن أن تكون هذه الطليعة، وأين يمكن أن توجد؟! أنجدها في صفوف النساء الفاسقات اللواتي عبدن المادة والشهوات، وسرن في طريق مخالفة لطريق الإسلام!!؟

أم نجدها في بيوت أولئك الرجال الذين انحرفوا عن الصراط السوي، واستحكمت فيهم الشهوات فلا يفهمون للإسلام معنى، ولا يلقون للإصلاح بالاً؟!!

كلا، إننا إذا ما أردنا أ نحصل على هذه الطليعة المرجوة من النساء، كان حتماً علينا أن نيمم وجوهنا تلقاء بيوت الطليعة المؤمنة الصالحة من الرجال، الذين اغتبطوا بالإسلام، وأعلنوا حرصهم عليه، وتابعوا طريقهم في سبيل الدعوة إليه...

ولكننا مع كل أسف، لا نكاد نجد في بيوت هؤلاء إسلاماً، ولا في نسائهم صلاحاً، بل كثيراً ما نجد من هؤلاء من هم غير حريصين على هذا الإصلاح في البيوت إلا بالقول، وما ذاك إلا لضعف في نفوسهم أوصلهم إلى درجة اليأس من واقع نسائهم، أو إهمالاً منهم لواجب لم ينتبهوا إليه، ليشعروا بأهميته، ولم يذق كثير منهم وبال أمره بعد... أو إتباعاً منهم للشهوات وإيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة، وما أكثر أمثال هؤلاء في صفوف المسلمين، بل في صفوف الدعاة لهذا الإسلام..!!

ولا ينكر هنا أثر المدارس الإصلاحية للنساء التي يؤكد عليها الكثير في هذا الميدان، ولكننا نؤكد على ضرورة إصلاح المرأة كأم وزوجة، وأن لا يكتفى بإصلاحها كبنت وطفلة، فلنعالج الأمهات، ولنتعهد البنات في وقت واحد، ولا يشغلنا أمر بعيد عن أمر قريب ليتكامل البناء ونأمن عليه من الانهيار.

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدمُ !؟

وتتجلى لنا ضرورة العمل على إصلاح المرأة في البيت المسلم فيما يأتي:

أ. في الحفاظ على الأسرة المسلمة من أن تفشو فيها المنكرات، ويعصى فيها أمر الله عزوجل، فتتعرض بذلك لسخطه وعقابه.

ب . في تخلص رب الأسرة من المسئولية الملقاة على عاتقه، إذ أن عليه أولاً وقبل كل أحد تغيير المنكر في بيته بيده..، فلا يمكن أن تقبل من رجل مسئول دعوى العجز والضعف...

ج . في الحفاظ على الأولاد، وضمان تربيتهم التربية الصحيحة، وتنشئتهم على الاستقامة، حيث يرون في آبائهم وأمهاتهم النموذج الصحيح الكامل للمسلم في هذه الحياة، فيقتدون بهم، وينهجون نهجهم في الصلاح.

د . في المساهمة العملية في بناء نواة المجتمع الإسلامي الصالح المنشود، مساهمة مجدية تتجاوز حدود الرغبات والأماني.

هـ . في إيجاد الأسرة المثالية، والإكثار منها لتكون مثالاً صادقاً للدعوة إلى الإسلام قولاً وعملاً في خضم البيئة الجاهلية المنحرفة.

4 . طريقة التغيير والإصلاح:

إن المرأة في جميع أحوالها لا تخرج عن أن تكون أماً، أو زوجة، أو بنتاً، أو أختاً، أو ذات رحم، كما أنها لا تفقد في أحوالها كلها الراعي والمسئول عنها في أمور دينها ودنياها... ولو فرض أنها فقدت أولياءها فالشيطان ولي من لا ولي له...

وإن إصلاحها عن طريق الولي الشرعي هو الطريق الأول، ولذلك خاطب الله عزوجل الأولياء برعاية أمورها وحفظ حقوقها، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ...)[1].

وقال أيضاً: (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ...)[2].

وقال أيضاً: (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ...)[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته...)[4].

كما جعل الله عز وجل حق القوامة للرجل، وجعل له درجة على النساء، فقال عز وجل: (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة)[5].

وقال أيضاً:

(ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون، والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيدا، الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله، واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن الله كان علياً كبيرا)[6].

قال الإمام القرطبي عند تفسير هذه الآية:

" دلت هذه الآية على تأديب الرجال نساءهم، فإذا حفظن حقوق الرجال فلا ينبغي أن يسيء الرجال عشرتها، وقوّام . فعّال للمبالغة من القيام على الشيء والاستبداد بالنظر فيه وحفظه بالاجتهاد، فقيام الرجل على النساء هو على هذا الحد، وهو: أن يقوم بتدبيرها وتأديبها وإمساكها في بيتها ومنعها من البروز، وأن عليها طاعته وقبول أمره ما لم تكن معصية ...)[7].

وقال الإمام الرازي في تفسيره:

" قوامون على النساء: أي مسلطون على أدبهن، والأخذ فوق أيديهن، فكأنه تعالى جعله أميراً عليها، ونافذ الحكم في حقها...)[8].

---

[1] الآية /6/ من سورة التحريم .

[2] الآية /132/ من سورة طه .

[3] الآية /59/ من سورة الأحزاب .

[4] متفق عليه .

[5] الآية /288/ من سورة البقرة .

[6] الآية /34/ النساء .

[7] تفسير القرطبي (ج5/169/ .

[8] تفسير الرازي (ج10/88) .

فإذا ما عرف الرجل والمرأة على السواء حدود هذه الولاية الشرعية وأنها جبرية لا خيار فيها، وعرفوا المسئولية المترتبة على الإخلال بها، قام كل طرف بواجبه، وشعر بمسئوليته تجاه من هم تحت رعايته.

فإذا ما أحس الأولياء رعاية النساء، وقاموا بواجباتهم نحوهن، ووجهوهن التوجيه السليم، كانت النتيجة سليمة طيبة بعون الله، وسلمت البيوت المسلمة من أمثال هذه الشذوذات، ومخالفات أمر الله.

ولا تمنع هذه الولاية الشرعية الأولياء من أن يتعاونوا مع غيرهم في أمورهم، فيستشيرون الخبراء والعلماء ليمدوهم بالعون سواءً عن طريق الرأي والتدريب، أو عن طريق التدريس والوعظ وإقامة الحلقات، فكثيراً ما يكون بعض الرجال ضعفاء الشخصية، أو جاهلين بأحكام الشرع، أو فاقدين الحكمة في أساليبهم.

أما أن يستسلم هؤلاء الضعفاء لضعفهم، فيتركوا الحبل على الغارب ويدعون الإصلاح للغرباء والعلماء، منهزمين من ميدان المعركة . معركتهم . فإن هذا أمر لا يتفق مع نظام الإسلام في الأسرة، كما لا يتفق مع الرجولة من جهة أخرى، ولا يمكن أن يؤدي وظيفته كاملة...

ولا بد للأولياء في طريق الإصلاح من أن يمروا بمراحل مختلفة في هذا السبيل:

أ. المرحلة الأولى:

وهي: "مرحلة إعلان الرغبة في الإصلاح والعزم على ذلك"

كثيراً ما ينتبه بعض المسلمين إلى ضرورة الإصلاح في زمن متأخر، بعد أن يكونوا قد خطوا خطوات واسعة في طريق الإعراض... فلا بد لهم في هذه المرحلة من العزم الأكيد، والرغبة الصادقة في الإصلاح والتغيير أولاً، ثم إعلان هذه الرغبة للأهل والأولاد مع توضيح مبرراتها التي دفعته إلى ذلك، وبيان الأخطار المترتبة على الأسرة والأولاد من وراء هذا الإعراض...

ولا شك أن الرجل أمام هذا الإعلان يتوقع كل شيء، يتوقع الطاعة والامتثال، كما يتوقع الإعراض والمخالفة، فعليه أن يعد لكل موقف عدته من لينٍ أو قوة، من ترغيبٍ أو ترهيب... فقد تطول المعركة بين الزوجين في هذا الأمر، ولكن النصر أخيراً لا بد أن يكون للرجل القوام على أهله، قال تعالى: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين)[1].

وإذا ما باءت المعركة بالفشل . لا سمح الله . فليعلم الرجل المؤمن أن لا خير في هذه المرأة، ولا في وجودها في كنفه، ولا في إشرافها على تربية أولاده، ويكون الفضل كل الفضل لهذه الخطوة المباركة التي كشفت له صديقه من عدوه، مهما تظاهر ذلك العدو بالصداقة والمحبة... (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم)[2]، وإن المسلم الذي لا يستطيع أن يثبت في ميدان كهذا، أمام امرأة

---

[1] الآية /69/ من سورة العنكبوت .

[2] الآية /14/ من سورة التغابن .

وأولاد، في سبيل إقامتهم على الدين وقصرهم عليه، لهو مسلم ضعيف، وأنى له بعد ذلك أن يثبت في معارك خارجية واسعة النطاق أمام أعداء الله!!

لقد ثبت المؤمنون الأولون في معارك أضرى من هذه مع أمهاتهم وآبائهم وأبنائهم فانتصروا فيها عندما آثروا الآخرة على الدنيا، وحب الله على كل شيء... (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين)[1].

ويكفينا في هذا المقام أن نستشهد بقصة ذلك الصحابي المؤمن الذي وقفت أمامه (أمه) مستغلةً عاطفة الأمومة لترجعه عن دينه، فتقسم أنها لا تأكل طعاماً ولا تشرب شراباً حتى يرجع عن دينه أو تموت فيعير بها، وظلت على ذلك أياماً حتى أنهكها الضعف، فجاءها وقال لها: والله يا أم لو كانت لك مئة روح، وخرجت روحاً روحاً، ما تركت ديني هذا لشيء أبداً فكلي إن شئت أو أمسكي، فأكلت، وخسرت المعركة...

ولا عجب، فكثيراً ما تستغل الأمهات كما يستغل الأبناء العطف الذي غرسه الله عزوجل في نفوس كل من الطرفين ليصلوا بذلك إلى أغراضهم الدنيوية التافهة، فلم لا يستعمل المسلم هذا السلاح في سبيل دينه!!؟.

وعجيب أن يصل بعض النساء الصالحات إلى نتيجة طيبة مع أزواجهن المعرضين بأسلوبهن وحكمتهن، ثم يضعف كثير من الرجال أن يقفوا مثل هذه المواقف، ويصلوا إلى هذه النتائج، وسلاحهم أقوى، وسيفهم أمضى، وملاك الأمر بأيديهم...

ولعل سلاح (المودة والمحبة) بين الزوجين أقوى من كل سلاح إذا عرف الرجل استغلاله لأمر دينه، كما يستغله دائماً لأمر دينا‌ه، (وجعل بينكم مودة ورحمة)[2].

ب . أما المرحلة الثانية:

"مرحلة المعالجة والتأديب في سبيل الإصلاح"

فهي تختلف بحسب الأحوال والأوضاع والنتائج: فإن تم للرجل ما أراد، فليحمد الله على ذلك، وليحرص على أن يكون شعوره بالإصلاح ثابتاً في نفسه، يتابعه بالتدرج والملاحظة التامة، فإن الإصلاح لا يتم دفعةً واحدة...

وحذار حذار من الفتور بعد النشاط، واللين بعد الشدة، والتساهل بعد الحرص، فإن الشيطان يستغل أمثال هذه الغفلات ليرد الصالح عن صلاحه كما يستغل بعض الصعوبات العارضة في الطريق، ليثنيه عن السير فيه، ويشككه في النتائج...

---

[1] الآية /24/ من سورة التوبة .

[2] الآية /21/ من سورة الروم .

وهنا تبرز ضرورة الاستعانة بالله والاستعاذة من الشيطان، والتعاون مع الإخوان، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، وعليكم بالجماعة، فإن يد الله على الجماعة...

(والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)، (مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى).

وإذا لم يتم له ما أراد، ولم ير من أهله إلا الإعراض، فعليه أن يكون أصلب عوداً، وأشد عزيمة، فلا يدفعه ذلك الإعراض إلى التردد في الأمر، أو تأجيله، أو التساهل فيه، فإن ذلك عين الهزيمة.

بل عليه أن يفكر بوسائل أخرى للمعالجة، فلكل داء دواء، وكثيراً ما تختلف النفوس والطباع في هذه المرحلة.

فعلى الزوج أن يكون دقيقاً في معرفة نفسية زوجته فهناك النفوس التي ينفع معها اللين والترغيب، فلا يصح أن يستعمل معها غيرهما...

فكم من النساء من يغريها شيء من المال، فيسهل عليها فقه كل شيء، وكم من النساء من تستهويها الزينة والحلي، فتتحمل في سبيل الوصول إليها كل صعب...

فليبذل الرجل في هذا ما استطاع أن يبذل، فإنما هو بذل في سبيل الله وإعلاء كلمته، وكثيراً ما يبذل الناس الكثير والكثير في سبيل الوصول إلى شهوة أو متعة. ولكن السعيد من بذل دنياه لآخرته...

وهناك من النفوس لا يؤثر فيها ترغيب ولا تحبيب، ولكنها ينفع معها أمر آخر... وإن الشارع بحكمته حسب لكل نوع حسابه ، حيث وضع لكل داء دواءه.

ولهذا نجد الطريقة التأديبية الشرعية مراعىً فيها اختلاف الطبائع قال تعالى: (واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن، واهجروهن في المضاجع، واضربوهن، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن الله كان علياً كبيرا، وإن خفتم شقاق بينهما، فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها، إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيرا)[1].

فلقد جعل الله عزوجل للرجل حق تأديب زوجته إذا ما خلفته وخاف منها النشوز، ولو في حق شخصي من حقوق دنياه، فكيف بها إذا خالفت حقاً من حقوق دينه، وخرجت عن طاعته في أمر الله، وعرضت الأسرة بذلك الانحراف للفساد والانهيار!!

إن المرأة التي تجانب طريق الله في البيت وتعلو على أوامره سبحانه وتخرج عن طاعة ربها وزوجها لأشد خطراً من المرأة التي تمتد يدها إلى شيء من المال، أو تخالف رغبة شخصية من رغبات الزوج...

---

[1] الآية /35/ من سورة النساء .

وإذا كان موقف الرجل المسلم أمام المنكر الخارجي العام ذلك الموقف الحازم الذي عبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (ولتأطرنه على الحق أطرا، ولتقصرنه على الحق قصرا...) فكيف به أمام منكر داخلي في زوجته وأهله، حيث يملك التغيير بيده!!

ولهذا كان حتماً على الزوج إذا ما خرجت المرأة عن طاعته في ذلك أن يسلك معها ذلك الطريق القرآني في التأديب، فيرغبها ويرهبها، ويعدها ويواعدها في حدود ما يعلم وما يملك، فإن أفاد هذا المسلك، وإلا فليتخطه إلى المسلك الثاني الذي أشار الله عزوجل به، ألا وهو "الهجر".

إن المرأة أي امرأة بوصفها زوجة للرجل، وسكناً لنفسه، كثيراً ما تستغل صفات أنوثتها، والعاطفة التي بينها وبين زوجها لتصل من وراء ذلك إلى غايتها، ورغباتها...

فما من شيء أصعب على المرأة من أ ن يظهر أمامها زوجها معرضاً عنها، متشاغلاً عن حاجته إليها، مستعلياً على إغرائها وجاذبيتها... فتفقد بذلك سلاحها الوحيد الذي تملكه.

ولهذا يطلب الشارع من الرجل أن يستعلي . وهو في ميدان المعركة القائمة . على عاطفته، فلا يلتفت لداعي الجنس وهاتف الشهوة، لما يعلم في ذلك من الأثر الكبير في رجوع المرأة إلى دائرتها، وشعورها بأنوثتها وضعفها، وعلمها بأن حاجتها إلى الرجل أكثر وأشد من حاجة الرجل إليها... فتسرع المرأة حينئذ لاستعادة رضاء زوجها، خوفاً من تماديه بهذا الإعراض الذي تخش المرأة من ورائه أن يكرهها زوجها كراهية لا تحمد عقباها... وهي أدرى بها...

ولو استعصى طبع المرأة تارة على السبيلين الأوليين، الوعظ والهجر، كان لا بد للرجل من أن يسلك الطريق الثالثة مضطراً، ليدفع شبح الانهيار في العلاقة الزوجية بما هو أخف منه وهو "الضرب التأديبي" وكثيراً ما يفعل هذا الضرب من التأديب فعلته في بعض النفوس المريضة التي لا تخضع إلا للقوة المادية... وهنا تتجلى لنا حكمة الشارع العليم الخبير بطبائع النفوس إذ شرع لكل نفس وحال ما يلائمها ويصلحها...

وبالضرب يكون الإنذار الذي ما بعده إنذار، بخطر انفصام عروة الزواج، إذ بلغ الأمر من الكراهية مبلغه، فإما أن تعقل المرأة حقيقة الموقف الذي وصلت إليه، فتتلافى الأمر، وما أسرع ما تعود المحبة والألفة بين الزوجين! وإما أن تعلن باستمرار عصيانها استعدادها للانفصال عن هذه الأسرة وحينئذ لا يجدي الضرب التأديبي الذي لم يشرع للكسر والقسر وإنما شرع للتنبيه والتأديب، وتأتي المرحلة الأخيرة في المعركة، ويحاول الشارع أن يرأب الصدع ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فيوصي بالتحكيم، فيحكّم شخصان، أحدهما من طرف الزوج والآخر من طرفها لتتوفر فيهما الرغبة الصادقة بالإصلاح غالباً، وليكونا بعيدين عن المؤثرات الداخلية التي سادت سيطرتها بين الزوجين هذه الأيام...

(وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها، إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليماً خبيرا).

فيدرسان الأوضاع، ويوضحان الأخطار المحيطة بالأسرة من وراء هذا النزاع . ولا شك أنهما مختاران ممن ينظران بنظرة الدين والعقل، لا بنظرة العاطفة والشهوة . فيبذلان جهدهما في الإصلاح، ويصدران حكمهما بعد ذلك بالانسجام والاتفاق، أو الاعتزال والافتراق، وإن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما، وإن يريدا غير ذلك، فرق الله بينهما، فلا خير في أسرة تقوم علاقاتها على الشحناء، وتؤسس لبناتها وينشأ أولادها على الفساد...

ومن استعراض هذه المراحل المختلفة في الإصلاح، يظهر لنا أن الإسلام وضح الطريق، وجعل كلاً من الزوجين على بصيرة من أمره، (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها...)[1].

كما يظهر لنا أن هذا السلاح التأديبي الذي وضعه الله بيد الرجل في المنازعات ليس كغيره من الأسلحة المادية التي تفقد قوتها إذا ما عرفها وكشفها الطرف الآخر المنازع، وإنما هو سلاح يعتمد على النفوس والقلوب والغرائز التي جبل الله الإنسان عليها، ولهذا عرضه الله عزوجل واضحاً صريحاً بارزاً أمام الرجال والنساء على السواء، يتلوه الطرفان في القرآن الكريم ، تتلوه المرأة المؤمنة، فتعلم أنه الطريق الوحيد الحكيم للإصلاح مادام منزلاً من عزيز حكيم، ويقرأه الرجل ليعرفه ويستعمله وقت الحاجة إليه (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)[2]، (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير!!!)[3].

وعلى الرغم من هذا كله: نجد مع كل أسف كثيراً من الرجال من يتبع هذه الخطوات، بك كثيراً ما يسيئون استعمالها فيتخطون مراحلها دون علم ولا فهم، وذلك في سبيل الوصول إلى غايات شخصية، أو رغبات نفسية، أو متاع دنيوي، في الوقت الذي ينسى فيه كثير من المسلمين المنتسبين إلى الصلاح، هذه الخطط الحكيمة والتوجيهات القرآنية فيعرضون عنها، فيستفحل الشر، ويعم البلاء، ويتسع الخرق على الراقع. ويخسرون يوم القيامة أنفسهم وأهليهم. (وقال الذين آمنوا: إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، إن الظالمين في عذاب مقيم)[4].

فليحرص المؤمنون العاملون على هذا الإصلاح، وعلى التمسك بهذه التوجيهات القرآنية، ولا يثنيهم عنها ضعف ولا خور، فهم أعلم الناس بأنه لا مناص من الابتلاء والامتحان في هذه الحياة، وليذكوا قول الله عزوجل: (لتبلون في أموالكم وأنفسكم، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، ومن الذين أشركوا أذىً كثيرا، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور)[5]، وقول الله عزوجل (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم...)[6].

---

[1] الآية /7/ من سورة الإسراء .

[2] الآية /50/ من سورة المائدة .

[3] الآية /14/ من سورة الملك .

[4] الآية /45/ من سورة الشورى .

[5] الآية /186/ من سورة آل عمران .

[6] الآية /14/ من سورة التغابن .

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله عند تفسير هذه الآية:

"وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد سأله رجل عن هذه الآية فقال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم.. الخ ثم يقول:

ولكن النص القرآني أشمل من الحادث الجزئي وأبعد مدى وأطول أمدا، فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذي في الآية التالية من الموال والأولاد معاً (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) والتنبيه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدواً. إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية ، ويمس وشائج متشابكة دقيقة في التركيب العاطفي وفي ملابسات الحياة سواء. فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله، كما أنهم قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فيلقى ما يلقاه المجاهد في سبيل الله... ثم يقول:

فيكونون عدواً له لأنهم صدوه عن الخير وعوّقوه من تحقيق غاية وجوده الإنساني العلي، كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه اتقاءً لما يصيبهم من جرائه، أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه، ويعجز عن المفاصلة بينه وبينهم للتجرد لله. وهي كذلك صور من العداوة متفاوتة في الدرجات، وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن. ومن ثَم اقتضى هذه الحال المعقدة المتشابكة التحذير من الله لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا، والحذر من تسلل هذه المشاعر، وضغط هذه المؤثرات...)[1].

5 . إشكالات في طريق الإصلاح والأجوبة عنها:

كثيراً ما تعرض إشكالات وعقبات في طريق الإصلاح الأسري فلا بد لنا وقد بحثنا هذا الموضوع من عرضها وبيان الموقف منها..

1. التخوف من شبح الطلاق.
2. التخوف من العزلة والغربة التي تفرضها البيئة الجاهلية على المؤمنين المصلحين.
3. التثبيط من العزائم، والتشكيك في الوسائل والنتائج.
4. مهاجمة الأساليب القرآنية، والتنفير منها.
5. الرضا بالقليل من الصلاح والنظرة لمن هو دون.

أما الإشكال الأول:

وهو التخوف من شبح الطلاق:

فكثيراً ما يلوح أمام المفكر بالإصلاح الأسري شبح الطلاق، يهدد الرجل، ويضعف من عزيمته، لما يعرفه من آثاره السيئة في كيان الأسرة والأولاد، إلا أن هذا الشبح ما هو إلا وهم في الحقيقة يقويه الشيطان أمام المسلم المصلح ليثنيه عن إصلاحه، ويرضيه بواقعه السيئ... فإنه من النادر جداً أن يصل

[1] في ظلال القرآن (مجلد 8/128-129) من تفسير سورة التغابن .

إليه الرجل في سبيل الإصلاح إذا ما أحكم الخطة، وسارع على النهج الصحيح الذي أرشده إليه القرآن، (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيرا)[1].

فليس الطلاق شبحاً مخيفاً للرجل أكثر من إخافته للمرأة التي تعلم في قرارة نفسها إذا ما تمردت وأصرت على فسادها أن لا مبرر لها مطلقاً باختيار الانفصال والطلاق، الذي يترك آثاراً سيئة فيها أكثر مما يتركه في الرجل دائماً. ولهذا جعله الشارع سلاحاً في يد الرجل يستعمله في محله.

وإن في المودة والرحمة التي جعلها الله بين الزوجين سلاحاً أمضى من كل سلاح، قليلاً ما يحتاج الرجل الحكيم لمجاوزته، (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)[2].

فإذا ما تم الود بين الزوجين، وحصل التفاهم بذل كل منهما الغالي والنفيس في الحفاظ على هذا الرباط.

وعلى جميع الاحتمالات في هذا المقام يجب أن لا ينسى المسلم أن أمر الله عنده فوق كل أمر، ورضاه فوق رضاء الناس، وحبه أغلى من حب النفس والزوجة والولد... (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين)[3].

وأما الإشكال الثاني:

وهو: التخوف من العزلة والغربة التي تفرضها البيئة الجاهلية على المؤمنين المصلحين:

وهذه سنة الله عزوجل في خلقه، أن جعل المصلحين محاربين منبوذين حتى يأتي نصر الله، (ولقد بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس...).

فعلى هؤلاء المصلحين أن يعرفوا هذه الحقائق، كما يعلموا أن العاقبة للمتقين، وليبذلوا جهدهم بإقناع إخوانهم بطريقة الإصلاح وضرورته، لتتم لهم فيما بينهم البيئة الصالحة ولو كانت ضيقة، فيأنسون بها في هذا الطريق، (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)[4]، فعندما ترى المرأة السائرة في طريق الإصلاح، أختها وجارتها وصديقتها سالكات هذا الطريق تأنس بهن وتتعاون معهن على تحمل الصعاب ومقاومة العزلة التي كثيراً ما يفرضها الآباء والأمهات إذا كانوا معرضين عن الهدى، أو جاهلين لحقيقة الأمور.. (وكفى بربك هادياً ونصيرا)[5].

وأما الإشكال الثالث:

---

[1] البقرة /269/ .

[2] الآية /21/ من سورة الروم .

[3] الآية /24/ من سورة التوبة .

[4] الآية /2/ من سورة المائدة .

[5] الآية /31/ من سورة الفرقان .

وهو: تثبيط العزائم، والتشكيك في الوسائل والنتائج:

فإنه قد لا تكتفي البيئة الفاسدة من فرض العزلة على المصلحين، ولكنها تتجاوز ذلك مثبطة للهمم، ومشككة في الطريق، وكثيراً ما يكون هذا من المسلمين الضعفاء، أو المنافقين الأشقياء، لأن هذا الإصلاح والتغيير للأوضاع الفاسدة يكشف ضعف هؤلاء، ويوجه الأنظار إلى تقصيرهم، وهم لا يجدون في أنفسهم استعداداً لهذا التغيير، أو تحملاً للمشاق في سبيله فيشنون حملة على المصلحين، ويعظمون أمامهم الأمور، ويلبسون أحياناً لباس الناصح الأمين، والمحب الشفوق...

فمنهم من يشكك في هذا الطريق، ويبث اليأس في النفوس، ومنهم من يحاول أن يوجه أنظار هؤلاء المصلحين إلى مشاكل عامة خارجية يشغلونهم بها . وقد ناءت بحملها وعلاجها الجماعات .

ويوحون مع ذلك إلى هؤلاء: أنهم مشغولون بأمور خاصة وجزئية، عن أمور عامة وكلية، أو بأمور هي كالقشور مع تركهم للب.

ولكن هيهات هيهات أن يسلم لهم رأيهم، أو يصلوا إلى غاياتهم، فإنه لا صلاح للأوضاع العامة إلا بصلاح ألأوضاع الخاصة، ولا سلامة للبناء الكبير إذا فسدت لبناته...

فإنه إذا لم تقم دولة الإسلام في النفوس، وفي الأسر، لم تقم على الأرض أبداً لأنها سنة الله في هذه الحياة، (ولن تجد لسنة الله تبديلا...)[1].

وما أكثر المثبطين في ساحات الجهاد !!، وما أسوأ الأسباب الدافعة لهم إلى ذلك!! ويكفينا في هذا ما قرره القرآن الكريم عن نفوس المنافقين فقال عزوجل فاضحاً لهم:

(فما لكم في المنافقين فئتين، والله أركسهم بما كسبوا، أتريدون أن تهدوا من أضل الله، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ،ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء...)[2] ويقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: (قل يا أهل الكتاب: هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل من قبل، وأن أكثركم فاسقون) يقول:

" فهذا الفسق هو شطر الباعث، فالفسق يحمل صاحبه على النقمة على المستقيم، وهي قاعدة نفسية واقعية، تثبتها هذه اللفتة القرآنية العجيبة، إن الذي يفسق عن الطريق وينحرف: لا يطيق أن يرى المستقيم على النهج الملتزم، إن وجوده يشعره دائماً بفسقه وانحرافه، إنه يتمثل له شاهداً قائماً على فسقه وانحرافه، ومن ثم يكرهه وينقم عليه، يكره استقامته، وينقم منه التزامه، ويسعى جاهداً لجره إلى طريقه أو للقضاء عليه، إذا استعصى قياده. إنها قاعدة مطردة تتجاوز موقف أهل الكتاب من الجماعة المسلمة في المدينة إلى موقف أهل الكتاب عامة من المسلمين عامة، إلى موقف كل فاسق منحرف من كل عصبة ملتزمة مستقيمة، والحروب المشبوبة دائماً على الخيّرين في مجتمع الأشرار، وعلى المستقيمين في مجتمع

---

[1] الآية /38/ من سورة الأحزاب .

[2] الآية /88-89/ من سورة النساء .

الفاسقين، وعلى الملتزمين في مجتمع المنحرفين... هذه الحرب أمر طبيعي يستند إلى هذه القاعدة التي يصورها النص القرآني العجيب، وغفلةٌ أيّ غفلة أن يظن أصحاب الحق والخير والاستقامة والالتزام أنهم متروكون من الباطل والشر والفسق والانحراف، وأنهم يملكون تجنب المعركة، وأنه يمكن أن تقوم هنالك مصالحة أو مهادنة، وخيرٌ لهم أن يستعدوا للمعركة المحتومة بالوعي والعدة، من أن يستسلموا للوهم والخديعة، وهم يومئذ مأكولون مأكولون.."[1]

وأما الإشكال الرابع:

وهو: مهاجمة الأساليب القرآنية والتنفير منها:

قد تنفر بعض النفوس الضعيفة من الأساليب القرآنية في العلاج، وتعتبر الضرب مثلاً أمراً مرغوباً عنه، وصفةً وحشيةً في الإنسان، وما ذلك إلا بوحي العقل القاصر، وتأثير البيئة الفاسدة التي استعملت الضرب كوسيلة من وسائل التعذيب والإرهاب، وللإجابة عن هذا الإشكال أكتفي بنقل نص كامل من كلام الأستاذ سيد قطب رحمه الله في ذلك: فيقول:

"واستصحاب المعاني السابقة كلها، واستصحاب الهدف من هذه الإجراءات كلها يمنع أن يكون هذا الضرب تعذيباً للانتقام والتشفي، ويمنع أن يكون إهانة للإذلال والتحقير، ويمنع أن يكون أيضاً للقسر والإرغام على معيشة لا ترضاها، ويحدد أن يكون ضرب تأديب مصحوب بعاطفة المؤدب المربي، كما يزاوله الأب مع أبنائه، وكما يزاوله المربي مع تلميذه.

ومعروف . بالضرورة . أن هذه الإجراءات كلها لا موضع لها في حالة الوفاق بين الشريكين في المؤسسة الخطيرة، وإنما هي لمواجهة خطر الفساد والتصدع، فهي لا تكون إلا وهناك انحرافٌ ما هو الذي تعالجه هذه الإجراءات.

وحين لا تجدي الموعظة، ولا يجدي الهجر في المضاجع، لا بد أن يكون هذا الانحراف من نوع آخر، ومن مستوى آخر لا تجدي فيه الوسائل الأخرى، وقد تجدي فيه هذه الوسيلة وشواهد الواقع والملاحظات النفسية على بعض أنواع الانحراف نقول: إن هذه الوسيلة تكون إحدى الوسائل لإشباع انحراف نفسي معين، وإصلاح سلوك صاحبه، وإرضائه في الوقت ذاته.

على أنه من غير أن يكون هناك هذا الانحراف المرضي الذي يعينه علم النفس التحليلي بالاسم، إذ نحن لا نأخذ تقريرات علم النفس (مسلمات علمية) فهو لم يصبح بعد علماً بالمعنى العلمي، كما يقول الدكتور (ألكس كاريل) فربما كان من النساء من لا تحس قوة الرجل الذي تحب نفسها أن تجعله قيماً، وترضى به زوجاً إلا حين يقهرها عضلياً، وليست هذه طبيعة كل امرأة، ولكن هذا الصنف من النساء

---

[1] في ظلال القرآن (ج6/197-198) . عن مذكرة أخينا الأستاذ زهير الخالد في التاريخ الإسلامي للسنة الثانية صلى الله عليه وسلم 10-11 .

موجود، وهو الذي قد يحتاج إلى هذه المرحلة الأخيرة ليستقيم، ويبقى على المؤسسة الخطيرة في سلم وطمأنينة.

وعلى أية حال: فالذي يقرر هذه الإجراءات هو الذي خلق، وهو أعلم بمن خلق، وكل جدال بعد قول العليم الخبير مهاترة، وكل تمرد على اختيار الخالق وعدم تسليم به مفضٍ إلى الخروج من مجال الإيمان كله.

وهو سبحانه: يقررها في جو وفي ملابسات تحدد صفتها، وتحدد النية المصاحبة لها، وتحدد الغاية من ورائها، بحيث لا يحسب على منهج الله تلك المفهومات الخاطئة للناس في عهود الجاهلية حين يتحول الرجل جلاداً باسم الدين، وتتحول المرأة رقيقاً باسم الدين، أو حين يتحول الرجل امرأة، وتتحول المرأة رجلاً، أو يتحول كلاهما إلى صنفٍ ثالث مائع بين الرجل والمرأة باسم التطور في فهم الدين، فهذه كلها أوضاع لا يصعب تمييزها عن الإسلام الصحيح ومقتضياته في نفوس المؤمنين..."[1].

وأما الإشكال الخامس:

وهو: الرضا بالصلاح النسبي، والنظرة لمن هو دون:

يتابع الشيطان معركته مع المسلم المصلح فيرضيه بأقل قدر ممكن من الصلاح، ويوجه أنظاره إلى من هو دونه من الناس ليرى نفسه على مستوىً عالٍ من التقدم، فيقنعه بما خطا من خطوات...

ولا شيء أصعب على الشيطان . وهو العدو اللدود . من أن يرى المسلم يتابع طريقه في الإصلاح، ويتقدم في سبيل مرضاة الله...

فعلى المسلم أن يتيقظ لهذه الأساليب الشيطانية، وينظر دائماً لمن هو فوقه، وإلى السابقين في طريق الخير، فيتابع طريقهم، فإذا فقد هؤلاء السابقين المتقدمين فيمن حوله من الناس، فإنه لا يمكن أن يفقدهم أبداً في سيرة أمته، وتاريخ سلفه، وحسبه أسوةً رسول الله صلى الله عليه وسلم (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر...)[2].

وإن أخطر ما ابتلي به المسلمون الصالحون هذه الأيام تلك النظرة النسبية في الصلاح، فما من مسلم إلا وهو أحسن حالاً ممن هو دونه وهناك من هو أسوأ منه وقليل أولئك الذين ينظرون إلى الأمام ولا ينظرون إلى الوراء..

ولله در القائل:

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

---

[1] في ظلال القرآن (ج64/5) .

[2] الآية /21/ من سورة الأحزاب .

فليسارع المسلم إلى مرضاة ربه، وليتابع سيره في هذه الطريق، حتى يلقى ربه وهو عنه راض، وليكن دعاءه دائماً دعاء عباد الرحمن الذين امتدحهم الله في كتابه حيث يقولون: (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، واجعلنا للمتقين إماما، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما)[1].

[1] الآية /74-75/ من سورة الفرقان .